الظاهرتية الإجتماعية

د. عبد الرحمن عزي
ترجمة : فريد موزاي

هذه الدراسة هي محاولة لتحديد وتبرير وتوضيح - بقدر الإمكان - المفاهيم والمبادئ الأساسية الراهنة للظاهرتية الاجتماعية . وقد إعتمدت في ذلك على ملاحظاتي الشخصية حول المحاضرات التي ألقاها Wagner في جامعة TWU النسائية خلال الدورة الصيفية لسنة 1982 في ملتقى تحت عنوان «حقل الظاهرتية الإجتماعية» . واستندت ايضاً الى المناقشات التي أجريتها مع هذا المؤلف عقب نهاية الدورة الى غاية 1985 .

وقد استعملت أيضاً - كلما اقتضت الضرورة - جملة من المصادر الهامة المتعلقة بهذا الميدان .

إن حدود هذا العمل تسمح فقط بتناول المبادئ الأساسية للظاهرتية الإجتماعية بشكل مختصر بحكم أن أي موضوع من هذه المواضيع يمكن أن يكون بمفرده مجالاً لبحوث كثيرة . واقترحت في الأخير مقارنات بين الثقافات يمكن أن تفتح الطريق أكثر تعزيز وتعمق في بناء النظرية من جهة ورسم الخطوط العريضة للحدود الملازمة لمثل هذا النوع من المنظور النظري من جهة أخرى .

الظاهرتية كميدان للبحث يتضمن مجموعة متنوعة من التوجيهات النظرية والمنهجية مثل ، الظاهرتية الوجودية ، الظاهرتية الميتافيزيقية ، الظاهرتية الماركسية[1] ، الظاهرتية التجريبية[2] إلخ ... . فالظاهرتية التي تعود جذورها الأولى الى الفلسفة أصبحت الآن تمارس نفوذاً على عدد من الفروع المعرفية مثل : الرياضيات ، الفيزياء ، الفن ، علم النفس ، الأنثربولوجيا ، وعلم الإجتماع ، وتعتبر بحوث Schutz في ميدان علم الإجتماع الإطار العملي الذي يتحرك فيه علم الاجتماع المبني على الإعتبارات الظاهرتية[3] .

وقد أشاد Pasathas بدور هذا الباحث في قوله : «إن إسهام Schutz يبقى مميزاً

وخالداً ، ولا يمكن لأي دارس معاصر أن يتجاهل أعماله وهو يعتبر نفسه متضلعاً مع علم الإجتماع الظاهراتي»[4] .

وفي الواقع يمكن اعتبار عمل Schutz كأول محاولة لتركيب علم الإجتماع بالظاهرتية . وبحكم معرفته للفلسفة وعلاقته بالعرف الإجتماعي ، استطاع Schutz أن يقدم لعلم الاجتماع تأويلاً واضحاً لمعنى الفلسفة الظاهرتية ، ولأنه عاش في فينا أتيح له أن يستفيد من أعمال Scheler, Weber, Husserl وآخرين ، وفي أمريكا اطلع على مؤلفات علماء الاجتماع الامريكين الأوائل مثل Thomas, Cooley, Mead, James وغيرهم .

مع ذلك لم يكن Schutz أثناء وفاته سنة 1959 معروفاً في أمريكا ، وكان تقريباً منسياً في أوروبا[5] ، ذلك أن Schutz طرح فكرة علم إجتماع إنساني مواضيعه الأساسية بدت وكأنها معارضة للمجتمع الآلي الذي كان سائداً في أمريكا . غير أن خلال عقد السينات بدأ طلبة علم الاجتماع في إثارة أسئلة حول المقاربات التقليدية في علم الاجتماع واعتبروها (أي المقاربات) قد وصلت الى طريق مسدود ولم يعودوا مقتنعين بما يتلقونه في القسم عن الوظيفية مثلاً ، وأرادوا شيئاً ذات معنى ودلالة . وفي هذا البحث عن مقاربة جديدة إكتشفوا Schutz[6] .

لقد استطاع هذا الباحث أن يحفز لإجراء عدة دراسات في الظاهرتية ، ومكانته كأبرز شخصية في النظرية الاجتماعية الراهنة أمر مفروغ منه[7] .

مع ذلك يبقى عمل Schutz يفتقر الى التأييد الواسع في علم الاجتماع الأمريكي . وفي هذا السياق يؤكد Ihde أن الظاهرتية لا تزال «صوت الأقلية» في الفلسفة الأمريكية الراهنة[8] . بالإضافة الى ذلك تم التأكيد على أن الظاهرتية ليست بأي حال من الأحوال علم الاجتماع ، ولذلك فإن الإنتقادات التي تنبثق من مثل هذا المصدر (الظاهرتية) تكون خارجة وليست لها صلة بالفرع (علم الاجتماع)[9] .

إن بروز الظاهرتية الإجتماعية - كما أشرنا - كان نتاج إنقراض مصداقية مقاربات علم الإجتماع التقليدي . فالظاهرتية الإجتماعية تنتقد خصوصاً علم الإجتماعي الوضعي الذي تقبل بكل سذاجة أن تكون العلوم الطبيعية كنموذج للعلوم الإنسانية . فالظاهرتية الإجتماعية تمتلك من الناحية الكيفية خصائص مختلفة عن الظاهرة الطبيعية . ففي أغلب الحالات يوجه البحث في علم الإجتماع الوضعي كما لو أن كل

الأهداف الفعلية والمشاكل والمسائل المنهجية محلولة بشكل مرض ، في حين ترى الظاهرتية أن المنهجية يمكن أن تعالج كإشكال فقط .

يرى Colthorp و Strasser أن الظاهرتية الإجتماعية تمثل بديلاً لعلم الإجتماع الوضعي والإمبريقي . ومع ذلك فإن هدف الظاهرتية الإجتماعية ليس العمل بمعزل عن نتائج المقاربات الإمبريقية ولكن بالأحرى لفت الإنتباه الى الحدود التي يتضمنها هذا المنهج ، والمقصود من ذلك أن التجربة والدليل غير معصومين من الخطأ . وفي الحقيقة يجب اعتبارهما إشكالية[10] .

لقد اعتُبر حقل علم الاجتماع أكثر من مرة بأنه في حالة أزمة[11] . فالإنتقادات التي تعرض لها جاءت من دوائر مختلفة (داخل وخارج الذرع) . فمن الخارج نجد الإنتقادات الخاصة بصلة علم الاجتماع الذي يخبر الناس عما يعرفونه مسبقاً . فعلى سبيل المثال : لم يكن علم الإجتماع قادراً دائماً على تقديم معرفة وافية تساعد السياسيين في تعاملهم مع المسائل الإجتماعية . وفي الداخل نجد أن علماء الإجتماع كانوا ربما أقل ثقة بحقلهم من نظرائهم في العلوم الاجتماعية الأخرى[12] . ولذلك يبدو أن إعادة النظر في الأسس النظرية والمنهجية لعلم الاجتماع ضرورة ملحة . فالظاهرتية ربما تعتبر بداية في الإتجاه السليم . فقد صرح Schutz مرة : «لست متأكداً من أنني قدمت الإجابات المناسبة ولكنني متأكد من أنني أثرت الأسئلة الملائمة»[13] .

صعوبة تعريف الظاهرتية

مهما كان للظاهرتية من إلتباسات وتناقضات إلا أن جزءاً من المشكل يكمن في حقل الظاهرتية ذاته والجزء الآخر هو نتيجة للإنتقادات السطحية التي تعرضت لها والمبنية على قلة الفهم والتبصر .

فالغموض الذي يكتنف الظاهرتية يأتي مع أي نمط جديد وحقيقي في البحث . فكما ذكر Kuhn ، تميزت الثورات «بالتحولات في النموذج» . وقبل أن يتم إعادة النظر وتترسخ قاعدة هذا المنظور الجديد يبقى هناك نطاق لسوء الفهم بين الذين يدعون الى النموذج الجديد والذين يتمسكون بالقديم[14] .

وقد اعترف Heidegger مرة بأنه بالرغم من قراءته المتعمقة والمتعنة لأهم مؤلفات

Husserl إلا أنه لم يستطع أن يفهم المعنى الكامل للظاهرتية ولم تكتمل لديه الصورة إلا بعد أن تعلم «رؤية الظاهرتية الإجتماعية»[15] .

يرى الظاهرتيون ان تعريف الظاهرتية ليس هو الأسلوب الأنجع للشروع في وصف هذه الأخيرة فـ Ihde مثلاً يؤكد أنه «بدون ممارسة الظاهرتية ، ربما يستحيل فهمها بدون الدخول في الممارسة من المحتمل على الأقل أن يساء فهم القوة والمضمون الأساسي للظاهرتية أو بخطأ على الأكثر»[16] .

ومن جهة أخرى اقترح دارسو الظاهرتية مجموعة من التعاريف المختلفة فـ Husserl مثلاً ينظر الى الظاهرتية على أنها منهجية بدون افتراضات مسبقة ومحتواة في ذاتها ويعني Husserl بدون افتراضات مسبقة أن على الباحث أن يستبعد كل الإعتقادات (بما فيها التاريخية) لدراسة الظاهرة كما هي . وعملية التجرد من كل الإعتقادات تخلق ما يعرف «بالذات المتعالية» التي هي حالة يرى الفرد من خلالها الظاهرة أو الموضوع كما هو (مفهوم «المتعالي» يشير الى مدى قدرة الفرد على التعالي عن افتراضاته المسبقة) .

وبالعودة الى الأشياء في حد ذاتها يأمل Husserl خلق علم قوي . ويقصد بالمحتوى الذاتي التأكيد على خاصية طريقته التي هي ضد الميتافيزيقا . وبتعبير آخر ، مثل هذه الطريقة ليست في حاجة الى التأويل الميتافيزيقي للظواهر[17] . واستناداً الى مفهوم Husserl للظاهرتية يرى Schutz أن الظاهرتية معنية بدراسة عالم الحياة (life world) . وبالنسبة إليه تبقى الذات الدنيوية (Mundane. Ego) في معطى الوجود الأرضي لعالم الحياة .

بالإضافة الى Husserl نجد أن فكر Schutz تأثر بالعديد من الظواهرتين والفلاسفة فـ Weber مثلاً وفّر لـ Schutz تبصراً إضافياً لفهم سسيولوجية عالم الحياة وبالنسبة لـ Schutz يجب أن يوجه علم الإجتماع الى دراسة الفعل الاجتماعي كما عاشه الفرد (المعنى الذاتي للفرد) . وإذا سار الباحثون على خلاف ذلك إنما يحاولون عبثاً خلق شيء من العدم[18] .

بعض الخلفيات النظرية في الظاهرتية الإجتماعية

لقد أدرك الظاهرتيون حقيقة مؤداها أنه «عندما ننظر فإننا نسير خطوة خارج الحقيقة»[19] ، ذلك أن المنظر من خلال تنظيره يخلق حقيقة جديدة ، إذ يضع

المفاهيم في تراكيب وصيغ (لغة) والتي تعطي لها (المفاهيم) حقيقة مختلفة (فمفهوم الفقر يعني شيئاً معيناً بالنسبة للمنظر وشيئاً آخر للفرد الذي عاش هذا الفقر) .

رغم ذلك أدرك الظاهرتيون أيضاً الحاجة الى نظرية . فالنظرية - كما يقول Weber - ضرورية : إنها توفر إطاراً متماسكاً من الفروض التي تستخدم في الشرح والتقرب التدريجي مما هو موجود في العالم الحقيقي[20] ، وإن كان للنظرية حدودها ، إذ بإمكانها فقط شرح أجزاء أو جوانب معينة من الظاهرة ولا توجد هناك نظرية تستطيع أن تفسر كل أجزاء الظاهرة . يرى Weber أنه لا معنى للإعتقاد بأن النظرية قادرة على تفسير النظام كله وأن ميدان علم الإجتماع غير مستنفذ (Inexhaustible) .

وكما أشار Wanger[21] أن مفهوم كلمة «المقاربة» (التي تعني تقريبنا من شيء ما) تدل بوضوح على مثل هذه المحدودية[22] .

إن الباحث يحتاج للإنطلاق من «مكان ما» الى وصف وتفسير عالم الحياة فمفهوم «المجتمع» ، «القوى الاجتماعية» ، «الطبقة الإجتماعية» ، «البنية الإجتماعية» ...إلخ لا تفسر أبداً حقيقة الحياة اليومية . وفي بعض الفئات يمكن أن تكتسب قوة خارقة للطبيعة . بمعنى المجتمع يكون خارجاً هناك .

يرى الظاهرتيون أن المجتمع ليس خارجاً هناك . بل بالأحرى يوجد هنا كما عاشه الفرد . وقد دعى Weber الى النزول بالتجريد الإجتماعي الى لبه الإجتماعي المحسوس . وفي علم الإجتماع فإن مفاهيم مثل : «المكانة» ، «التعاون» «الاقطاعية» والمفاهيم المشابهة لها تعين عموماً صنف من الأنواع المعينة للتفاعل الإنساني . بالتالي فمن مهمة هذا العلم اختزالها الى أفعال مفهومه ، وهذا يعني بدون استثناء أفعال أفراد من نوع خاص[23] .

إن علم الإجتماع التقليدي ، كما صاغة Conte و Spencer يقوم على الفرضية التي تؤكد على الفصل بين المجتمع وتبعية الأفراد له ، ومن هنا يبقى الفعل الإجتماعي الفردي خارجاً عن مركز الإهتمام في البحث[24] . فلم يترك كل من Durkheim و Marx أي مجال للفرد واعتباره محددا . فبالنسبة لدوركايم يكون الفرد محدداً من طرف القوى الاجتماعية ، أما ماركس فيرى أنه محدد من قبل الطبقة الإجتماعية التي ينتمي إليها . وقد أدرك Weber هذا المشكل وحاول لفت الإنتباه الى دراسة المعنى الذاتي للفرد[25] .

وهذه الطريقة الجديدة في التفكير نجد لها إنعكاس في مقولة Schafer (أحد أبرز القادة التاريخيين في عصره) : «إن وضع المجتمع في مكان الدولة والكنيسة كسلطة خاصة لحياة الإنسان الإجتماعية في إعتقادي خطأ فادح»[26] .

إن نتيجة هذه المقاربة الجديدة هي أن بنية المجتمع بأكملها وخصائصها لم تعد موضوع البحث في علم الإجتماع ، وبالأحرى العقل الإجتماعي نفسه . وعلى حد تعبير Surbot «المؤسسات الموضوعية هي نتيجة العلاقات التبادلية للفعل الإجتماعي والعمل على ضبطها»[26] .

يعتقد Simmel أن التفاعل الإجتماعي[28] (أو العلاقات التبادلية) هو العنصر الإجتماعي الحقيقي في المجتمع ، ويرى أنه لابد أن يهتم علم الإجتماع نفسه بمسألة فهم الطريقة التي تؤول بها الحقيقة من خلال تفاعل الأفراد فيما بينهم . وقد عبر Weber عن وجهة نظر جديدة في تعريفه لعلم الإجتماع . «العلم الذي يعتني بالفهم المؤول للفعل الإجتماعي ، ومن هنا التفسير السببي لمجراه وعواقبه»[29] .

ويشير Surbor الى أن التعريف التالي حظي بنوع من الاجماع «العلم الذي يتخذ الحقيقة الإجتماعية التاريخية في أي شكل من أشكالها كموضوع له ، ولا يمكنه – إذا ما أراد أن يتعامل مع موضوعه بصورة وافية – أن يعمل بمفرده على صياغة قوانين عامة كما هو الحال في العلوم الطبيعية ، ويجب أن يدرك أن الحقيقة الإجتماعية هي نتاج تجارب الأفراد وتأويلاتهم وفهمهم وتصرفهم بطريقة ذات معنى ودلالة» .

وبالنسبة للوضعين فإن المعاني الذاتية للفرد شيء يتعذر بلوغه ولذلك يجب صرف النظر عنها . أما الفنولوجيون[30] فيرون أن على علم الإجتماع تطبيق منهجية من التأويل تكون محكمة عقلانيا وتمكّن من الوصول الى الفعل الفردي وتسمح بالتعميم[31] . ولتحقيق ذلك حاول Weber تطوير منهجية «النموذج المثالي» Ideal Type وعمد Simmel الى تأسيس منهجيته المتمثلة في شكل ومحتوى الفعل الإجتماعي .

إن الهدف الأساسي الذي سعى إليه Husserl هو خلق «فلسفة بلا افتراضات» A presuppositionles les philosophy أو علم صارم يكون أساس العلوم الأخرى ، ونقطة إنطلاقه تكمن في تجارب الكائن البشري العاقل الذي يعيش ويتصرف في العالم الذي يدركه ويؤوله والذي يحمل معنى بالنسبة له[32] .

وأشكال الوعي بالنسبة لـ Husserl مرتبطة بمحتوى التجربة . والتجارب هي توجيه الانتباه نحو أشياء حقيقية كانت أو خيالية ، مادية أو مثالية . وكل هذه الأشياء تكون مقصودة . فلا يوجد إذن طور أو جانب من الوعي من أجل الوعي ، فالوعي هو دائماً وعي بشيء ما[33] . ولدراسة الظاهرة كما تبدو للوعي فإن كل التصورات والإعتقادات المسبقة يجب أن تعلق ولو الى حين . وعن طريق هذه السيرورة وحدها يعتقد Husserl أنه مكن للشخص أن يصل الى ماهية الظاهرة في حد ذاتها .

إن الظواهر بالنسبة لـ Weber هي أفعال إجتماعية[34] ، ولدراسة الفعل الإجتماعي ينبغي التركيز على الفاعل المنتج للفعل . ومن ناحية أخرى يعتبر الفعل اجتماعياً فقط بقدر ما يُوجه في مساره نحو الآخرين . ومن جهته يرى Wanger أن الفعل الإجتماعي «غير مكتمل» في علم الإجتماع الذي جاء به Weber لأنه لا يتضمن عنصر القصدية[35] . أما Schutz فيرى أن الأفعال هي أفعال فقط عندما يعطي الفاعل معاني لها .

نقد أدرك Schutz صعوبة تحليل المعاني الذاتية للفرد من الداخل «Inside» وليس من الخارج «Outside» . فالمسألة هنا يمكن أن تُثار في شكل السؤال التالي : كيف يمكن معرفة ما إذا كان الفرد يقول الحقيقة أم يكذب ؟.

فقد أظهر علم الإجتماع الدرامي الذي أسسه Goffman أن ما يقوله الفرد ليس هو بالضرورة ما يفكر فيه . ولحل هذا الإشكال يقترح Walf على الباحث ألا يتخذ بجدية ما يقوله الفرد كما لا يجب أن يلغيه . وبدلاً من ذلك يجب أن يحاول الباحث عيش تجربة الفرد (موضوع الدراسة[36] . بمعنى يكون الباحث في وضع الأنتربولوجي الذي يعيش في المجموعة التي هي قيد الدراسة .

مع ذلك لا تخلو هذه السيرورة من التحليل من بعض الصعوبات . فمن جهة تتوقف نتائج البحث على الأدوات الخاصة بالباحث ، فبعض الباحثين يكونون أكثر تجهيزاً من غيرهم في تحليلهم لظواهر خاصة . ومن جهة أخرى ، لا يوجد هناك أي أسلوب يستطيع الباحث من خلاله فهم الفرد كلية ، فالأسلوب الوحيد لفهم الفرد كلية هو أن يكون الباحث ذلك الفرد نفسه (وهذا مستحيل) . لذا يمكن أن يصف الباحث بياناته في صيغة إحتمالات[37] .

يعتبر Schutz ربما المنظر الوحيد الذي أحسن استعمال علم الاجتماع الأمريكي

المبكر[38] بمفهوم James المتعلق «بحالة الشعور» «State of Conscionsness» يوفر تبصراً عن كيفية إدراك الوعي للشيء أو الظاهرة ، إذ أن حالة العقل هي دائماً حالة الآن . والحالة عندما تذهب لا تعود مرة أخرى . فحينما أشاهد شيئاً ، أشاهده بطريقة خاصة ، ولا يمكنني أن أشاهد نفس الشيء بنفس الطريقة مرة أخرى .

وعلى حد تعبير James هناك سيل من الوعي ولا يمكن للفرد أن يطأ بقدميه نفس السيل مرتين[39] . فعندما أرى الشيء في المرة الثانية ، فأنا شخص آخر ، وهذا ما ينشيء ديناميكية بين الوعي والظاهرة . فالظاهرة تبقى قائمة بينما وعي هذه الظاهرة هو الذي يتغير .

إن هذه العلاقة الديناميكية بين الوعي والظاهرة تتطابق مع مفهوم Mead الخاص بالأنا «I» والذات «Me» ، وفي تعبير Wanger الأنا والذات تعكسان استمرارية النفس (الأنا) في لاإستمرارية التجربة (الذات)[40] .

إن معظم النظريات الخاصة بالنفس تجمع على أن جزءاً من النفس يشكل من خلال التجارب الشخصية (هذا يفسر لنا لماذا نعيش الحياة بكيفيات مختلفة) ، وأن الجزء الآخر من النفس يتكون بفعل المجتمع (وهذا المجتمع ما يفسر لماذا نستطيع أن نقوم بعملية الإتصال والإمتثال) .

وقد حاول Thomas أن يحلل كيف يتصرف الأفراد في وضعيات . فالثقافة تعطي تعريفات للوضعيات مثل : «المثل الجماعية» «collective representations» عند دوركايم و«الفلكلور» «Folkways» عند «Sammer» . ففي وضعية قسم الدراسة توجد هناك معايير تبين للأفراد كيف يتصرفون ، متى وما هي الأسئلة التي ينبغي أن تطرح وبأية كيفية ...إلخ . فبمجرد أن تنتهي الوضعية لا تحدث مرة أخرى أبداً . إلا أن الوضعيات تتميز بالإنحراف عن النمط . وعلى سبيل المثال : كل حصة في قسم دراسي هي فريدة من نوعها وكل شخص يكون في حالة ذهنية خاصة . ففي الوقت الذي تلتقي فيه المجموعة في حصة أخرى ، فإن كل فرد يكتسب حالة ذهنية مختلفة (أو كل فرد يصبح فرداً آخر) .

بالإضافة الى ذلك يمكن للفرد أن يعطي تعريفاً خاطئاً للوضعية الخاصة ، فمثلاً : يمكن للطالب أن يطرح سؤالاً خاطئاً . ولهذا السبب فإن التعريف الثقافي لا يعتبر

العامل الفاصل في تحديد الوضعية ، بل تتحدد بفعل العلاقة الديناميكية بين التأويلات الثقافية والشخصية[41] .

إن مفهوم النقطة الإمتيازية «Vantage point» عند «Cooly» تقدم تبصراً في كيفية إدراك الفرد للعالم الذي يحيط به . فكل فرد يعيش عالمه بناء على نقطة إمتيازه الخاصة . وإذا رجعنا الى مثال Cooly فإن الفرد الذي يقف في وسط الحديقة يرى العالم من حوله إنطلاقاً من نظرته الإمتيازية ، فهو يرى الأشياء القريبة من نقطته الإمتيازية بوضوح أكثر من الأشياء البعيدة عنها . ويتوسع Wanger في ذلك ويقول أن الأمريكين هم أكثر دراية بنقطهم الامتيازية من الألمانين (فمثلاً تعبير «من المكان الذي أقف فيه» from where stand» يستخدم بكثرة في اللغة الإنجليزية)[42] .

يعتبر Weber, Husserl وعلماء الإجتماع الأمريكين الأوائل من المنظرين الذين قولبوا (من القالب) تفكير Schutz ... هذا الذي لم يستفد فحسب من أعمال هذه الوجوه البارزة ، بل عمل أيضاً على دمج أعمالهم من أجل تطوير مقاربة واسعة لدراسة التجارب الإنسانية .

الظاهرتية الإجتماعية عند SCHUTZ

لقد كان الإتجاه الأساسي لـ Schutz نحو دراسة عالم الحياة . فهو يرى أن حقيقة الحياة اليومية هي الحقيقة العليا paramount reality وعلمية ، يجب أن يكون موضوع علم الإجتماع هو دراسة عالم الحياة أو حقيقة الحياة اليومية . فعلم الإجتماع الذي أتى به Schutz يستند الى تحاليل Husserl المتعلقة بدعوته الى الرجوع الى الأشياء كما هي[43] فعلم الإجتماع الذي يقترحه Schutz ينادي بالعودة الى الفرد[44] .

فحقيقة عالم الحياة ليست مكاناً خاصاً في العقل كما يذهب الى ذلك بعض المنظرين ، ولكنها تجربة الفرد في الحياة اليومية . فكما أوضح Santayana العقل لا يملك الأفكار أبداً ناهيك عن الأفكار التي يمكن إيصالها بدون الوسائل المادية والمناسبات المحسوسة[45] ، فمثلاً الأيدي التي تحمل الأدوات والخرائط لابد أن تتدخل لإنجاز المشروع[46] .

إستناداً الى مفهوم Husserl الخاص بتعطيل المعتقدات يرى Schutz أنه لابد أن توضع كل القيم بين قوسين لكي يستطيع الباحث أن يقترب من ماهية الظاهرة .

ويعتبر Wagner أن مفهوم «قيم خالية» «value free» يمكن أن يكون مأخوذاً من سياق علم الإجتماع الفيبري . ويرى أن مفهوم «القيم المحايدة «value neutral» تعبّر عما يقصره Weber أفضل من «القيم الخالية»[47] . فعلم إجتماع القيم الخالية يقتضي ضمنياً أن علماء الإجتماع لا يحملون القيم في حين يقتضي علم الإجتماع المحايد أن يكون علماء الإجتماع بشر يملكون القيم ، لكن لابد أن توضع هذه الأخيرة بين قوسين .

يهدف علم الإجتماع الذي جاء به Schutz الى فهم المعنى الذاتي للفرد . فالفرد عادة مالا يأخذ التعاريف الثقافية كطبعة (أو صيغة) لأفعاله . فهو بالأحرى يعدّل القيم والمعايير الثقافية بطريقة تتناسب مع تجاربه . وبتعبير آخر ، يمكن للثقافة أن تعني أشياء مختلفة لأفراد مختلفين . فالفرد لايعيش كل وضعية يجد فيها نفسه الى حدما وكأنها من إبداعه ، ويرى Schutz أن كل شخص يتموضع في علاقات متبادلة مع الشخص الآخر ، فهو عضو في البناء الإجتماعي الذي يولد فيه أو الذي إلتحق به ، والذي يوجد قبله وسيوجد بعده .

إن كل نظام إجتماعي كلي له بناء وتركيب من العلاقات الأسرية وفئات العمر والأجيال .. له تقسيم العمل وتصنيفات مختلفة حسب المهن .. كما له توازن القوى والسيطرة ، القادة والرعية[48] .. له كل ذلك بكل التسلسل السلمي المشترك .

يعتقد Schutz أن هناك علاقة ديناميكية بين الفرد والمجتمع . فالمجتمع يوجد من طرف الأفراد الذين يتعاملون مع بعضهم البعض . والفرد من جهته لا يوجد في فراغ . ويرى Smart أن الظاهرتية الإجتماعية تبدأ أحياناً وكأنها مجرد دعوة الى وصف وضعيات وتركيبات اجتماعية كما تظهر للفاعلين ، ويعود ذلك أساساً الى سوء الفهم . وهذا ما دفع Bitter الى تسمية مثل هذه الظاهرتية «بالظاهرتية الفاشلة»[49] .

إن مفهوم «الذاتية المتبادلة» «intrersubjectivity» له معنى وقيمة كبيرة في فكر Schutz فهو يرى أن أفراد يعيشون العالم الإجتماعي كذاتية متبادلية . فبوصفي كفاعل في المسرح الإجتماعي اعترف بأن رفيقي الإنسان ليس كشيء ولكن كبشر مثلي ، فأكون مسبقاً موجهاً نحو الآخرين «thou oriented» في اللحظة التي اعترف فيها بالكيان الذي أعيش معه كإنسان مثل بقية الآخرين (AS a thou) منسباً إياه الحياة والوعي[50] .

عندما يكون «التوجه نحو الآخرين» «thou orientation» متبادل ، أي أن كل

فاعل يكون «موجه الى الآخرين» بالنسبة لغيره فالعلاقة هي علاقة عشائرية «relationship of consociate» . وفي مثل هذه العلاقة تدرك الأطراف بعضها البعض[51] ، وتشترك بتعاطف[52] في حياة بعضها البعض مهما كان الوقت قصيراً .

وعلى كل ، هناك نوع آخر من العلاقة التي اعترف فيها برفيقي الإنسان ، ليس كإنسان ، بل كشيء . وفي هذه العلاقة يُفهم الشريك أو الطرف المتفاعل فقط من خلال تأسيس بنية من الأسلوب النموذجي للسلوك والحوافز ومن المواقف الشخصية ومثال ذلك ، أن مسار الفعل الذي يكونه مدير المستشفى حول الممرضة ، يمكن أن يكون مجهولاً باعتباره يتعلق فقط بسلوك «أي واحد» يتصرف بالأسلوب المعرّف على أنه نموذجي وفق هذه البنية . فالممرضة لم تُدرك كفرد واحد ، بل فقط كتجريد لأي واحد يتصرف مثلها[53] .

لكن في المجتمع المعاصر فإن أغلب الأشخاص الذين ارتبط بهم ليسوا من عشيرتي «consociates» وإنما من معاصري «contemporaries» إنني لم أدخل في علاقة مباشرة (وجهاً لوجه) معهم ، ولم اعتبرهم كأفراد من نوع خاص .

في رأي Schutz العلاقات التي تنشأ بن الأفراد تتضمن التنميط «typification» الذي يأتي من التجربة الأولية للرفيق ويحتوي على تكافؤ الميزات المتعلقة بالهدف الخاص والذي ينشأ من أجله هذا النوع من النمط . وكل الفروق الفردية التي لها علاقة بهذا الهدف لا تؤخذ بعين الإعتبار[54] . ومهما يكن ، فإن سيرورة التنميط تعتمد وتتوقف على شكل العلاقات ، فعند المعاصرين كل العلاقات الإجتماعية هي مع الأفراد المنطين الذين تُحدد لهم أدوار معينة . فكلما كان نوع العلاقة مجهولاً كلما ظهر الأفراد فقط على ضوء الأدوار والوظائف المتوقع منهم تأديتها بطريقة نموذجية . فعلى سبيل المثال : يمكن للأستاذ أن ينظر الى الطالب فقط على أنه طالب كبقية الآخرين الذين حضروا الى القسم لتسجيل الملاحظات وطرح الأسئلة ، وإجراء الإختبارات . فكلما تم تجاهل العلاقة القائمة بين الإثنين (الطالب – والأستاذ) ، كلما ظهر الطالب على ضوء الوظيفة المتوقع منه تأديتها بطريقة نموذجية[55] .

في العلاقات التي تقوم على الإتصال وجهاً لوجه مع «العشيرة» يُدرك الفرد بواسطة وسائل نظام التنميط . فأنا أفهم هذا الفرد «كإنسان» ، «كسحي» ، «كعالم إجتماع» ... إلخ . ولكن هذه الأنواع المستخدمة في التواصل وجهاً لوجه تصطدم

بذاتية الآخرين فتُختبر ، وإذا فشلت (أي الأنواع) في اجتياز الإمتحان ، أي إذا تناقضت مع التجربة الذاتية ، ثمة يجب تعديل هذه الأنواع من العلاقات . وإذا استخدمنا مثال Johensen : فأنا اقترب من الطبيب النفساني بنوع العلاقة التي تصفه «بالأكاديمي المنضبط البعيد عن العواطف» «austre aloof scholar» ، وبعد تفاعلنا وجهاً لوجه ، أغادره بنوع «الإنسان الحقيقي» «truly human person»[56] .

وإستناداً الى منهجية Weber الخاصة بالنموذج المثالي «ideal type» حاول Schutz تأسيس نماذجه المتعلقة بالفعل الإنساني . فهو يرى أن الأفراد محفزون في أفعالهم . وهذه الحوافز لا تعطي الدافع أو السبب للقيام بشيء ما فحسب ، بل تؤدي أيضاً الى العواقب . لكن عادة ما تكون الحوافز خفية . «فأنا لا أعرف لماذا قمت بها» ولذلك حدد Schutz نوعين من الحوافز الإنسانية ، «الحوافز السببية» «because of motives» و«حوافز غرضية» «in order motives» فمثلاً : ... قامت بذلك لأنها تحبه (حوافز سببية) و«قرأ مؤلفات Weber لتثقيف نفسه وإعطاء توجيهات لحياته (حوافز غرضية)»[57] .

يرى Schutz إستناداً الى مفهوم James الخاص بالحقائق المختلفة أن هناك أصناف مختلفة من الحقيقة . وما هو حقيقي ما يتواجد في بعض علاقة الفرد مع نفسه ، أو ما هو حقيقي بالنسبة لي هو له صلة بي . وعليه أتصرف وفقاً لما أعرف بأنه حقيقي . وعلى حد تعبير Thomas : «عندما تعرف الوضعية على أنها حقيقة ، فإنها حقيقة في عواقبها»[58] .

إن ما هو حقيقي يتضمن الإنتباه . فأنا اعتبر شيئاً ما حقيقياً لأنني انتبه إليه . وكما أشار Bergson فإن الإنتباه الى الحياة «attantion à la vie» شيء ضروري . وعندما يتوقف الفرد عن إعطاء الإنتباه لما يقوم به ، فإنه يدخل ميدان أحلام الحياة اليومية[59] .

يسمي Schutz تعدد الحقائق «بأقاليم المعاني» «provinces of meanings» فهو يرى أن هناك عدة أقاليم من المعاني ، عالم العلم ، عالم الأحلام ، عالم الخيال ، عالم الجنون أو وضعية المخدرات ، عالم الفن بأشكاله المختلفة ، عالم اللعب والرياضة ، عالم الأطفال ، عالم الثقافة الإبتدائية أو الإسقاط الشامل ، عالم الثقافات المختلفة ، عالم التجارب الدينية ، عالم التجارب الممكنة مع أسلوب إدراكه الشخصي[60] . وعندما ينتقل الفرد من إقليم الى آخر فإنه يتحرك عبر سيرورة «التحول» ويضيف Schutz أننا نعيش

حياتنا كأجزاء (الثقافة هي جزء) ، فيمكن للفرد أن يكون مسيحياً يوم الأحد ورجل أعمال يوم الإثنين . ويُرجع Schutz مثل هذه الظاهرة الى كونها حطام الحياة المعاصرة أين تعاش الحياة كأجزاء[61] والوعي يميل الى أن يظهر في أنماط مختلفة[62] .

يعترف Schutz أنه يمكن لمختلف أقاليم المعاني (أو المعرفة) أن تتعايش في سياق إجتماعي تاريخي خاص ، وربما تتبناها فيا بعد فئات اجتماعية أو طبقات في شكل ايديولوجيات . واذا كانت الإختلافات شاسعة (الإستقطاب) فإن عملية الإتصال بين الفئات تكون صعبة وتصبح وحده المجتمع تتوقف أكثر على توزيع القوة منها على المعرفة المشتركة ذات الصلة الوثيقة بهذه الفئات . وقد نوه Smart الى أن التوفيق بين التيارات الفكرية الفلسفية والإجتماعية هو رمز ومثال عن إسهام Schutz الواسع في بحوث علم الإجتماع[63] .

يؤكد Schutz أن المعرفة العلمية ما هي إلا إقليم من عدة أقاليم من المعاني في إطار الحقيقة الإجتماعية الشاملة . فمناقشة Schutz ومسلماته المنهجية الخاصة بالظاهرتية والفضاء الإجتماعي موجهة أساساً الى تحسيس عالم الإجتماع بضرورة تذكر إفتراضاته الخاصة بالموقف الطبيعي[64] ومن ثمة تقديم الدليل عن الكيفية التي يتابع بها الباحث دراسته للحقيقة الإجتماعية[65] . ويعتقد Schutz أن أهم مشكل يواجه العلوم الإجتماعية هو تطوير المنهجية من أجل التعامل بصفة موضوعية مع المعاني الذاتية للفعل الإنساني وأن موضوع تفكير هذه العلوم يجب أن يبنى على أساس الأفراد العادين ، وهذا بغرض الإنسجام مع الحقيقة الإجتماعية[66] .

لقد تميز عصر Schutz ببروز مدرستين في تحليل الظواهر الإجتماعية أحدهما تقرب تحليل الحقيقة الإجتماعية بنفس الطريقة التي تحلل بها العلوم الطبيعية ظواهرها ، والأخرى ترى بأن هناك فرق أساسي في بناء العالمين الإجتماعي والطبيعي . أما Schutz فيرى أن كلا الموقفين غير وافيين . فالإتجاه الأول يهمل فهم الفرد في الحقيقة اليومية ، والثاني يتجاهل تماماً وجود بعض القوانين الإجرائية المتعلقة بالفكر الرزين والتي (أي القوانين) تشترك فيها كل العلوم الإمبيريقية[67] .

منهجية الفهم «VERSTEHEN»

يرى الظاهرتيون أن المنهجية ليست تقنية ولكنها توجهاً (فالإستقصاء هو

تقنية) . وبدون مثل هذا التوجه لا يعود للتحليل الخاص أي معنى . فـ Weber مثلاً استخدم المنهجية في «النموذج المثالي» عند دراسته للبيروقراطية واستعمل طريقة الفهم «verstehen» في دراسته للأخلاق البروتيستينية .

يعتبر Dirthey ربما أول منظر يتعامل مع منهجية الفهم بشكل منتظم . ففي فصله «أزمة الفكر والثقافة الأوروبية» يصف أزمة الوعي كسفينة وسط عاصفة هائجة تضربها الأمواج من كل صوب وإتجاه .

ويرى Dirthey أنه يمكن للعلوم الإنسانية أن تحقق قوتها فقط إذا وُضعت على أسس نظرية متينة متجذرة من التجربة ومتجنبة لكلاً من التخمينات الميتافيزيقية والوضعية الطبيعية[68] .

ويعتبر Dirthey أن الفهم يمثل[69] المنهجية الوحيدة الحصرية للعلوم الإنسانية[70] . وقد أرجع منهجية الفهم الى المدرسة التأويلية «Hermeneutics» ، هذا المبدأ المنهجي للتأويل الذي أظهر بوضوح تحول من النصوص المقدسة ، الكلاسيكية الإمتيازية الى التعبير الإنساني عامة .

ويرى Dirthey أنه تم إعادة صياغة الطريقة التأويلية من خلال التحول المتعالي الذي يؤكد على القوى الإبداعية في الوعي الإنساني . وفي هذا المفهوم فإن المعاني لا ترى في عزلة نصية مثالية ولكن في سياق العلاقات التاريخية المتبادلة[71] . وعلى عكس Husserl الذي لا يعطي أهمية للتاريخ فإن (Dirthey وأيضاً Marx) يرى أن الظاهرة تفهم فقط من حيث علاقتها بالتاريخ . وكنتيجة ، فإنه لا ينبغي أن نأخذ التاريخ على أنه غير قابل للنقد باعتباره لا يتغير وواضح في حد ذاته وموضوعي وخارجي[72] . إنه من خلال المنهجية الخاصة باللهجة يظهر الوجود الحقيقي : فماهية الحقيقة يمكن أن تتجلى من خلق ستار المظاهر .

يعتبر علماء الإجتماع الظاهرتين هم نقاد علم الإجتماع الوظيفي . فـ Lyman و Scott في مؤلفهما «علم الإجتماع اللامعقول» يضعون خمس إنتقادات للنظرية الوظيفية أولاً : تتعامل (أي الوظيفية) مع الفعل الإنساني في سياق قوى غير مدركة من طرف الفاعل . وبالمقابل يرى الظاهرتيون أن هناك استمرارية وجودية بين الحرية والحتمية التي تتأسس ويتم تأسيسها من طرف الفاعلين الإجتماعين بصفة فردية أو بإتفاق وإجماع . ثانياً : تلح الوظيفية على أن مختلف أجزاء المجتمع ليست اعتباطية باعتبارها

تساهم في اندماج الكل . وبالنسبة للظاهرتية فإن مثل هذه العناصر ليست معاني محررة ، ثابتة وغير قابلة للتقليص . ثالثاً : ترى الوظيفية أن النظام الإجتماعي يتجذر في تكامل وتعاون أساسي ، في حين ترى الظاهرتية أن المجتمع المعاصر أفضل وصفاً على أنه مجموعة من الثقافات النوعية المتصارعة التي تتجه في علاقتها الى الحفاظ على بعض النموذج من الاستقرار من خلال توظيف الآليات الإجتماعية التي الى حد الآن لم يفهمها علماء الإجتماع بصفة وافية .

من خلال افتراض أن التعاون والتكامل شيئاً مسبقاً Prior ، فإن الوظيفية لا تستطيع أن تجعل من النظام الإجتماعي إشكالاً . رابعاً : الوظيفية تختار دراسة الإنسان من خلال وجهة نظر الملاحظ . فهي تعتبر أن تصورات الفاعل قائمة على جهل القوى الحقيقية التي تصنع أفعاله . لكن الظاهرتية ترى أن الإنسان كفاعل يبني أفعاله على أساس أهدافه ومحاولاته المستمرة لتعريف واعادة تعريف الوضعية . ومن هنا يمكن دراسة الفضاء الإجتماعي فقط من خلال وجهة نظر الفاعل . خامساً : تؤكد الوظيفية على أن هناك نظام القيمة المشتركة في المجتمع . وبالنسبة للظاهرتين فإن القيم والمعايير تطبق بصفة تعددية على أساس الوضعيات ، الأشخاص والأزمنة[73] .

قائمة الهوامش

(1) Smart, Barry, Sociology, phenomenology and Marxian Analysis, Routledge E. Kegan Paul, Boston, Mass, 1976, p. 115.
040sl
(2) Indie, Don, Experimental phenomenology, G.P. putnam's N.Y, 1977.
(3) Schutz, Alfred, On phenomenology and social relations, edited by Wagner, Hulmut, the University of Chicago press, Chicago, 1970, p. 1.
(4) Psathas, George, Phenomenological Sociology, Issues and Applications, John Wiley, Sons, N.Y. 1973, p. 7.
(5) Personal notes on Wagner's lectures given at Texas Woman's University 1982.
(6) Ibid.
(7) Ibid.
(8) Ihde, p. 17.
(9) Smart, p. 91.
(10) Ibid.
(11) Gouldner, Alvin. The coming crisis of Western sociology, Basic Books, inc, N.Y. 1970.
(12) Personal notes.
(13) Ibid.
(14) Ihde, p. 18.
(15) Ibid, p. 17.
(16) Ibid, p. 14.
(17) Personal notes.
(18) Ibid.
(19) Ibid.
(20) Ibid.
(21) Ibid.
(22) Ibid.
(23) Wagner defines sociology as an undertaking concerned with the rational and systematic study of social life in all its manifestations.
(24) Personal notes.
(25) Ibid.
(26) Smart, pp. 87-88.
(27) Srubor, Ilja, "On the origin of phenomenological sociology", World Congress of sociology, Mexico city, 1982, p. 4.
(28) Personal notes.
(29) Srubor, p. 5.

(30) Ibid, p. 7.
(31) Contemporary phenomenologists treat social interaction as problematical.
(32) Srubor, p. 8.
(33) Husserl calls this the genetic fallacy while dilthey argues that a phenomenon must be treated in the historical context.
(34) Srubor, p. 7.
(35) The controversy and the intensive philosophical discussions of the relationship of the natural sciences to the humanities can be traced to the 19th Century in the Work of Windelband, Rickert and Dilthey (Windelband and Rickert are consideed as neokantians and Dilthey as objective realist).
(36) Srubor, p. 10.
(37) The concept of ideal type was first used by Montesquieu.
(38) Schutz, p. 5.
(39) Personal notes.
(40) Social action is not synonymous to behaviour (exp: Thinking is an action) refraining from action is action, exp: not trying to save a person who in danger in other words, refraining from action has consequences.
(41) Personal notes.
(42) Personal notes.
(43) Ibid.
(44) Ibid.
(45) Ibid.
(46) Ibid.
(47) Ibid.
In view of the limitations of this paper, it is impossible to provide a systematic treatement of Schutz. My knowledge of schuts comes primarily from these sources.
(48) Knowledge comes from interpretation based on interpretation etc. To have a rigorous science, we must return to the experience of the individual in the real world.
(49) Personal notes.
(50) This is similar to Marx's notion of the dynamic relation ship between the mind and the material.
(51) Smart, p. 97.
(52) Personal notes.
(53) Smart, p. 85.
(54) Personal notes.
(55) Schutz Call this "we relation ship".
(56) That is, individuals are treated as unique individuals.
(57) Personal notes.
(58) Johenson, Roger in Psathas, p. 222.
(59) Personal notes.
(60) Johenson, p. 223.
(61) Personal notes.
(62) ibid.
(63) Ibid.
(64) Yatani, Hoshikuni, "The concept of iye world in Schutean.
Theory: its relation to multiple realities, "10th world Congress of sociology", Mexico city, p. 4.
(65) Personal notes.
(66) Smart, p. 99.
(67) Natural altitude refers to that which is taken for granted.
(68) Smart, p. 99.
(69) Ibid, p. 100.
(70) Personal notes.
(71) Ermarth, Michel, Wilhelm Dilthey the critique of histocial reason, the University of Chicago press, Chicago, 1978, p. 19.
(72) Earmarth argues that versthen is the most musunderstood concept in the Theory of knowlegde. Dilthey defines versthen as "The knowledge of that which is already known".
(73) Ermarth, p. 241.
(74) Ibid, p. 244.
(75) Smart, pp. 116-118.
(76) For Lukacs, the alterative method (exemplified by what Lukacs alludes to as bourgeois science) is to treat the various dements in reality as independant and autonomlous, than is to accept the form of division of labor in society as a valid basis for scientific conceptualization.
(77) Parsons is usually criticized for his inedequate interpretion for weber.
(78) Warren, Carol, Sociology: Change and continuity, the Dorsey Press, Illinois, 1977, pp. 373-374.